

عمر ماجد السنوي

جلال الدين السيوطي
وكتابه المزهر

ويليه:

جواب التعقبات

النسخة المستلّة

نُشر في مجلة (أوراق مجمعية) الصادرة عن (المجمع العلمي العراقي)

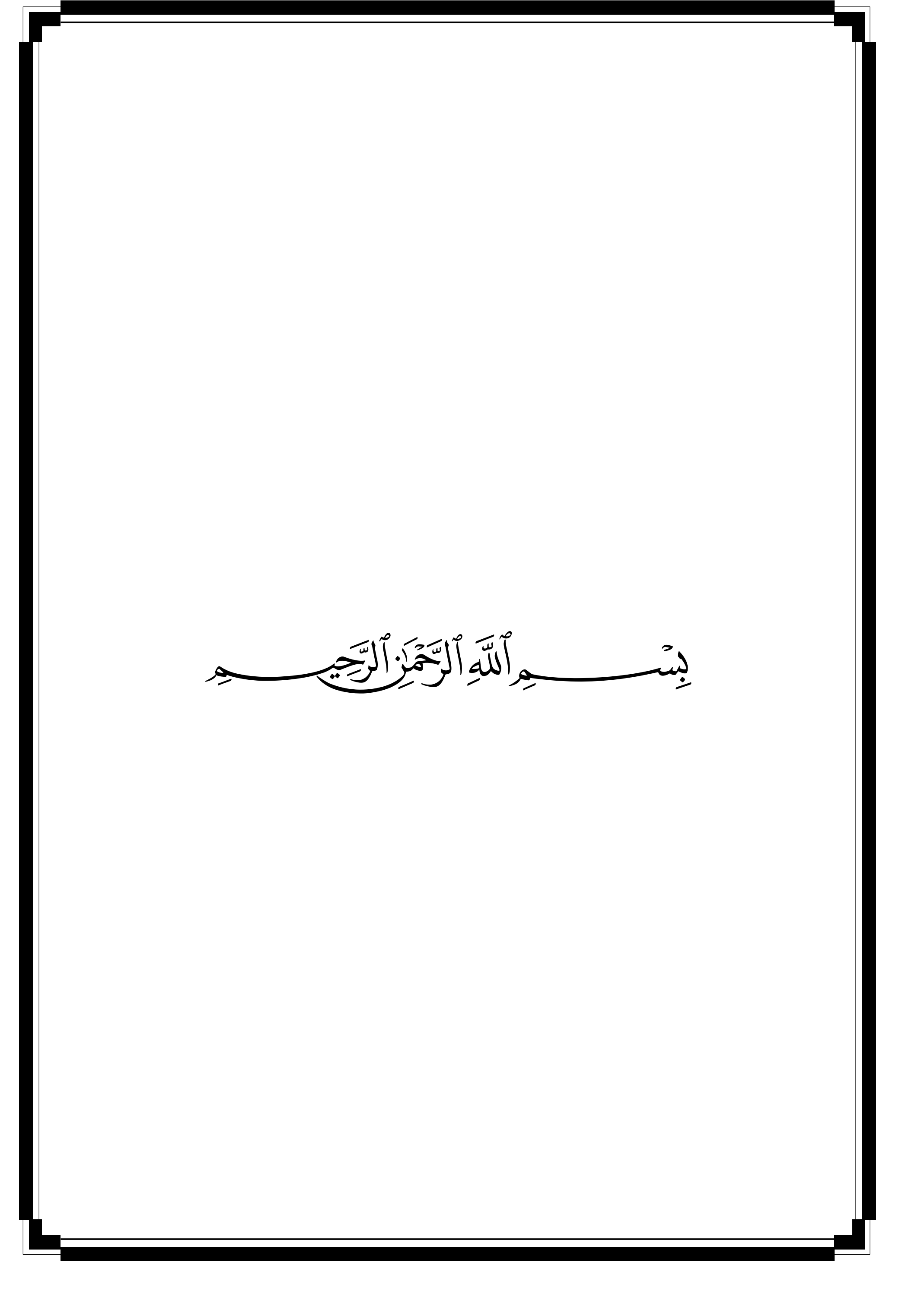
العدد الخامس، السنة الثامنة، كانون الأول (٢٠٢٣م)

جلال الدين السيوطي
وكتابه المزهر

وَيلِيهِ:
جَوابُ التَّعقّبات

تأليف

عُمَر مَاجِد السِّنَويّ


بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

جلال الدين السيوطي
وكتابه المزهر

عمر ماجد السنوي

تَقفُ هذه المقالةُ عندَ علَمٍ من أعلام التراث العربيّ الإسلاميّ، الّذي تُغني شُهرته عن التعريف به، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ، المَولود في القاهرة سنة (٨٤٩هـ)، والمتوفَّى فيها سنة (٩١١هـ).

وموضوع هذه المقالة كتابٌ من أشهر كتب السيوطيّ، وهو كتاب (المُزهِر في عُلوم اللُّغة)، الّذي يستدلّ به بعضُ الباحثين على إمامة السيوطيّ وعلوّ كعبه في العِلم، حتى قيل: لَو لَم يكن للسيوطيّ إلّا كتابَ المُزهِر لَكفَى.

أوّلاً: جلال الدين السيوطي

بماذا عُرف السيوطي؟

عُرِفَ السيوطي بكثرة مصنَّفاته، بدأ ذلك منذ بلغ السابعة عشرة من عمره كما يقول عن نفسه في كتابه (حُسن المحاضرة: ٣٣٧/١)، حتى شُغف بالتصنيف، ثم انقطع إليه في أواخر حياته. وقد بلغت مصنّفاته نحو ستمئة كتاب، ما بين جزء صغير، أو سِفر أو أسفار، وتنوّعت من حيث الأسلوب ما بين منظوم ومنثور، ومن حيث الأغراض ما بين اختصار واختيار وجمع وترتيب، ومن حيث الفنون ما بين لغة ونحو وبلاغة وحديث وفقه وتفسير وغيرها، حتى يكاد لا يخلو فنّ من فنون العلم إلا وله فيه تصنيف.

والمُلاحَظ من هذه الأغراض أنها غير ابتكارية في أصل مادّتها، فهي تعتمد على الموروث اعتمادًا كلّيًّا، وتحوّله إلى المتلقّي بطريقة تسهّل عليه تحصيل المادّة العلمية، إمّا

بتقريب فهم العبارة، أو بتقريب الوصول إليها في مجموع يلملم أشتاتها.

هل كان السيوطي مبْدعًا؟

كان السيوطيّ مبدعًا من جهة غرضه في التصنيف في بعض مصنَّفاته، فقد أتيح له بفضل اطلاعه الواسع وحافظته الجيّدة أن يكون له قصب السبق في التصنيف في موضوعات لم تُفرَد بالتصنيف مِن قَبلُ على النحو الذي ابتكره، وإن كانت مادّته موجودة طيَّ مؤلَّفات السَّابقين.

كما كان مبدعًا أيضًا من جهة حُسن الترتيب ولطافة الاختصار، فلذلك لاقت كتبه رواجًا كبيرًا، واشتهارًا مستطيرًا.

أما من جهة المادّة التي يعرضها في مؤلفاته، فلم تكن من مبتكراته، ولم يأتِ فيها بجديد، فهي تفتقر إلى النقد والتحليل والاستنباط، وربما في بعض المواضع -وهي نادرة- يكون له شيء من الترجيح، لكنه ترجيح مبنيّ على كلام مَن

سبَقه -أيضًا-؛ لأنّ السيوطي لم يكن من العلماء النقّاد ذوي البصيرة والاجتهاد، وإن ادّعى لنفسه هذه الدعوى العريضة التي لا نلمس منها في آثاره شيئًا ذا بال.

وهذا الكلام وإنْ كان مُرسَلًا، إلا أنّه يَعتمِد مصنّفاتِ السيوطي الّتي بين أيدينا دليلًا حاضرًا لمَن قرأها بتأمّل وتتبّع وتحقّق.

وعلى مَن رأى خلاف ذلك أن يأتيَ به، فالدليل على مَن أثبَت لا مَن أنكَر، فإذا جاء بالدليل جعلناه محلّ دراسة ونظَر، فنتبيَّن منه أكان حقًّا ذلك الاجتهاد والاستنباط والنقد والتحليل صادرًا عن السيوطي؟ أم أنّه اقتبسَه من مكانٍ ما؟

هل كان السيوطي مُمَحِّصًا لما يجمَعُه وينقلُه؟

لمّا كانت مصنَّفات السيوطي على النحو الذي ذُكِر مِن كونها جمعًا لِكلام السابقين ونقلًا عنهم، فإنّنا بحاجة إلى أن

نعرف مدى تمحيصه لما ينقله ومدى تحرّيه لما يحكيه. وبعبارة أخرى: هل كان مقمّشًا ومفتّشًا، أم اكتفى بالتقميش فَحسْب؟

فيظهر بالتتبع والاستقراء أنّه كان في غالب أحواله مقمِّشًا لا مفتِّشًا، ولذلك نجد عددًا من العلماء وصفوه بـ(حاطب ليل)، فالذي يجمع الحطَب ليلًا لا يتمكّن من التمحيص، فربما جمع مع أعواد الحطب ما يؤذيه ويؤذي أهله، كأن يحمل معها الحيّة يحسبها عصا!

ويظهر ذلكَ جليًّا في عدد من كتبه، منها كتبه الحديثيّة، كـ(الجامع الصغير) الذي قال في مقدّمته: "وصِنْتُه عمّا تفرّد به وضّاع أو كذّاب"، ولكن علماء الحديث رصدوا له مئات الأحاديث المكذوبة في هذا الكتاب، منهم: ناصر الدين الألباني، فقد صرّح في كتابه "تمام المِنّة" (ص٢٩) بأنه تتبّعَها حتى بلغت نحو ألف حديث مكذوب. وكذلك فعلَ أحمد الغُماري فقد ألّف فيها كتابًا بعنوان:

"المُغير على الأحاديث المَوضوعة في الجامع الصغير".

ومما يدلّ على تقميش السيوطي وعدم تفتيشه أنّه هو نفسه قد أودع كثيرًا من هذه الأحاديث في كتابه الآخر الخاص بالأحاديث المكذوبة، الذي سمّاه: (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة)؛ فقد عَدّها هنا من الموضوعات، بينما في (الجامع الصغير) لم يعدّها كذلك؛ فهذا تناقضٌ ناشئ عن عدم التمحيص، وعن الاعتماد على النقل فحسب.

وسيأتي أيضًا ما يدل على تقميشه دون تمحيص، عند الكلام عن كتابه (المزهر).

هل كان السيوطي أعلم أهل عصره؟

لقد وضعَ السيوطي نفسَه في قائمة الأئمّة المجتهدين، كما في كتابه: (حُسن المحاضرة)، وصار يتطلّع إلى أن يكون هو المبعوث على رأس المئة التاسعة ليجدّد للأمة أمر

دينها، فقال مُلمحًا إلى ذلك: "وعسى أن يكون المبعوث على رأس المئة التاسعة من أهل مصر". ثم بلغ به هذا التطلّع درجة الاعتقاد بأنه هو المبعوث على رأس المئة التاسعة، فقال في رسالته (فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة): "إني ترجيت من نعم الله وفضله أني المبعوث على هذه المئة التاسعة لانفرادي عليها بالتبحر في أنواع العلوم". ثمّ صنّف رسالته الغريبة (الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف!)، فقال فيها: "إنّ ثَمّ مَن يَنفخ أشداقه ويدّعي مُناظرَتي، ويُنكر عليّ دعوى الاجتهاد والتفرُّد بالعلْم على رأس هذه المئة، ويزعُم أنّه يعارضُني ويستجيش عليّ بمَن لو اجتمعَ هو وهُم في صعيدٍ واحدٍ، ونفختُ عليهم نفخةً واحدةً صاروا هباءً منثورًا"!

وهذا -كما يرى أيّ عاقل منصف- لا يقوله مَن بلَغ هذه الرتبة، فإنّ حال أصحابها التواضع، وهَمُّهم التعلُّم لا التعالُم، فضلًا عن أن يرى أحدهم نفسه أوحد عصره! فهذا

مما يزري بعقل قائله ومما ينمّ عن تعاظم فارغ.

وهذا الخُلُق الذي لمسناه من كلامه عن نفسه سنجده حاضرًا في سيرته العمَلية؛ فمِن ذلك مثلًا ما رواه عنه تلميذه عبد القادر الشاذلي في كتابه الذي ترجم له فيه، قال:

(أتى إليه نقيب الجيش يونس الطويل وخاطبَه على لسان الملِك الأشرف قانصوه، بسبب شكوى أهل البيبرسية فيه، وقال له: كلِّم السلطان... فقال الشيخ في الجواب، وهو متكئ بذراعه الأيمن على وسادته، وهو في غاية الرياضة، لم يتحرك ولم يختلج: ما لي وللسلطان؟! إنْ كان للسلطان عندي حاجةً فليأتِ إلى عندي. فقال له نقيب الجيش ثانيةً مِن باب الإغلاظ عليه: أجِبْ وليَّ الأمر. فقال الشيخ: اسكُتْ، وإلّا أنّني أُفتي بِكُفرك، وضَرْبِ عنُقك. مَن هُم أولو الأمر؟ نحنُ أولو الأمر، أولو الأمر العلماء).

وأعظمُ ما يُستهجَن في هذه الحادثة أن يُصبح الدِّين

ألعوبةً في يَد مَن يدّعي العلم والاجتهاد، فيُهدّد مَن يتعرّضُ لهُ بأن يُفتي بتكفيره! بل يفتي بضرب عُنُقه!

فأيُّ فقهٍ هذا؟!

ماذا قال العلماء في منزلة السيوطي العلميّة؟

اختلفت أقوال العلماء فيه، وقد اغترّ كثير منهم بكثرة مصنّفاته وشهرتها، وقدرته على استيعاب الموروث فيها، بالإضافة إلى ما زعمَه لنفسه من التبحّر في علوم شتّى، وما كانوا يرونه في مصنّفاتهِ مِن تقريراتٍ وتحريراتٍ ظنّوها مِن حُرّ فِكرِه، فأطلقوا عليه ألقابًا كبيرة، من نحو: الإمام، والعلامة، والحافظ، وغيرها. وإن كان بعضُهم أطلَقَها تجوُّزًا بما يناسب حال العصر الذي وُجِد فيه السيوطي، فإنّه من عصور الانحطاط العلمي، ولذلك كان الواحد منهم إذا بلغ من العلم مبلغ السيوطي وأمثاله يَعدُّونه من العلماء والأئمّة في مثل تلك البيئة، ولا ضير في هذا الإطلاق بهذا القيد.

ولكن علماء آخرين أبَوا إلا أن يجهروا بتقييمه في ميزان العلم لا ميزان العصر، فكشفوا عن حقيقة حاله بعد أن تأمّلوا مصنّفاته، فكان منهم على سبيل التمثيل لا الحصر:

١. الملّا عليّ القاري الحنَفيّ (ت ١٠١٤هـ). قال في كتابه "أدلّة معتقد أبي حنيفة" (ص١٢٠): ((وَأَطَال السّيوطيّ فِي ذِكر أَمْثَاله من الْأَخْبَار والْآثَار مِمّا لَيْسَ لَهُ مُنَاسَبة فِي هَذَا الْبَاب وَإِنّمَا هُوَ تسويدُ الْكتاب عِنْد مَن لمْ يُمَيِّز بَين الْخَطَأِ وَالصّوَاب)). ثمّ قال في آخر ردّه عليه (ص١٣٣): ((وَبِهَذَا يتَبَيّن أَنّه كَحاطِب لَيلٍ وخاطِب وَيلٍ)).

٢. مفتي بغداد الإمام أبو الثناء الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ). قال في كتابه "غرائب الاغتراب" (١/ ١٨٤): ((ومنه بعض ما ذكره الجلال السيوطي في كتابه "الهيئة السنية" وهو في جمعهِ ذلك على جلالته كالواقديّ حاطب ليل وخابط سيل لم يشمّر عن ذيل؛ فلا تكسل عن طلب الحقّ وسلوك سننه، وعليك باستماع القول واتّباع أحسنه)).

٣. العلامة عبد القادر بن بدران الدمشقي (ت ١٢٨٠هـ). قال في تفسيره (ص٣٣٦): ((جلال الدين السيوطي في كتابه "الدر المنثور" فإنه فيه حاطب ليل)).

٤. علامة العراق محمود شكري الآلوسي (ت ١٣٤٢هـ): قال في كتابه "غاية الأماني" (١ /٥١) ناقلاً عن مُعاصِرِه:

٥. العلامة بدر الدين النعساني الحلبي (ت ١٣٦١هـ) قوله في كتابه "الإرشاد والتعليم": ((والسيوطي -رحمه الله- كان فيما ألّفه من الكتب حاطبَ ليلٍ في كلّ كتابٍ له مذهبٌ ومشربٌ، وما أتى به في كتابه هذا لا يعوَّل عليه)).

وقد تجنّبتُ ذِكرَ آراء معاصري السيوطيّ، لكي لا يُقال: هذا من كلام الأقران.

وأما كلام أهل العلم المعاصرين فكثيرٌ لا حاجة إلى سرده هنا.

ثانيًا: كتاب المزهر

ماذا قال السيوطي عن كتابه المُزهِر؟

قال السيوطي في مقدمته للكتاب: (هذا عِلْم شَريف ابتكرتُ ترتيبَه، واخترعتُ تنويعَه وتبويبَه؛ وذلك في علوم اللّغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيتُ بهِ علومَ الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيتُ فيه بعجائبَ وغرائبَ حَسَنةِ الإبداع. وقد كان كثيرٌ ممّن تقدّم يُلمّ بأشياءَ من ذلك، ويعتني في بَيانِها بتمهيد المَسالِك، غيرَ أنّ هذا المَجموع لمْ يَسبقْني إليه سابِق، ولا طرَقَ سبيلَه قَبْلي طارِق).

فلْنتأمّل جيّدًا قوله: (ترتيبه) و(تبويبه) و(حاكيتُ) و(المجموع)، كلّها ألفاظ تدلّ على النقل والجمع والترتيب، فهذه صفته في عامّة كتبه.

ماذا قال محقّقو كتاب المزهر؟

نجِدُ مُحقِّقي الكِتاب [محمد جاد المولى، وعلي البجاوي، وأبو الفضل إبراهيم -وهُم أهل اختصاص في التحقيق واللغة-] قالوا في مقدمة تحقيقهم: (الكتابُ على ضخامته ليس للسيوطي فيه إلا الجمع والترتيب).

فهذا الكتاب ليس عِلمًا مبتكَرًا، ولا استنباطًا لعلمٍ مبنيّ على علوم السابقين، ولا تحليلًا ونقدًا لعلومهم تلك، وإنما هو لمٌّ لشعثها، وتوحيد لمَوردها، وترتيب لموضوعاتها. وقد أحسن السيوطي في هذا خيرَ إحسان، فهو من القادرين على ذلك لسعة اطلاعه.

ما مَوارد السيوطي في كتاب المزهر؟

كانت مصادر السيوطي وموارده كثيرة جدًا في كتابه هذا، فقد رصدَها الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه (بحوث ومقالات في اللغة: ص٢٠٦)، فقال: (بلغت مصادر

السيوطي في هذا الكتاب مِئَتَي مصدَر، يعود أقدمُها إلى القرن الثاني الهجري، كـ"العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، وأحدثها إلى الفيروزابادي المتوفّى سنة ٨١٧هـ، قبل السيوطي بحوالي قرن من الزمان).

وقد أفرغَ السيوطي -أو كاد- في كتابه هذا كُتبًا كاملة من كتب السابقين، لا سيّما الرسائل اللغوية الصغيرة، وكذلك بعض الكتب كـ(الصاحبي) لابن فارس، و(الخصائص) لابن جني، و(الغريب المصنَّف) لأبي عُبيد، وغيرها.

ما القيمة العلميّة لكتاب المزهر؟

تكمن أهمّية كتاب المزهر في كونه قد نقل كثيرًا من نصوص السابقين، وهذا يعني أنّه قد اطّلع على كتبٍ هي اليوم في عداد المفقود، فقد ذكَر الدكتور رمضان عبد التواب بأنّ نسبة النصوص المنقولة عن الكتب المفقودة في "المزهر" بلغت حوالي ٤٠٪ من حجم الكتاب. ومن هنا تبدو قيمة

كتاب "المزهر" الذي حفظ لنا هذا الكم الكثير من النصوص التي ضاعت أصولها، فهو في ذلك يُعدُّ مصدرًا أصيلًا في البحث العلميّ.

هذا بالإضافة إلى الجهد الكبير الذي بذله السيوطي في قراءة المصادر وجمع المادة وترتيبها بِصَبر وجلَد وذِهنٍ حاضر، لأجل ذلك تبوّأ كتابُه هذا منزلةً عالية بين مصنّفاته، على الرغم من أنه لا يخلو من قصور، فقد أخَذَ عليه الدكتور رمضان أنّه لم يستخدم في بعض الأحيان كل الكتب المتخصصة في الموضوع الذي يكتب فيه، ومثّل على ذلك بكتب مشهورة في بابها أهملَها السيوطي.

هل كان السيوطي حاطب ليل في كتاب المزهر أيضًا؟

لقد صَدَقَت مقولة أهل العلم في السيوطي، فإنّ وصْفَهم له بحاطب ليلٍ لا يقتصِر على تساهله في الحكم على

المرويات، وإنما هو عام في سائر كتبه التي هي قائمة على الجمع والنقل.

وسأكتفي -لضيق المقام- بذِكْر مثال واحد من كتاب (المزهر) من بين أمثلة عديدة:

خصّصَ السيوطي النوع الخمسين من أنواع كتابه (المزهر) بـ(معرفة أغلاط العرب)، وهذه الأغلاط نقلَها من سبعة كتب ليس بينها كتاب خاص باللحن! وفي هذا النوع نقلَ السيوطي مُقِرًّا عن (الخصائص) لابن جنّي أنّ همز "مصائب" غلط، لأن ياء مصيبة ليست بزائدة كياء صحيفة، وإنما هي أصلية مبدلة، وأصلها "مصوبة" لأنها اسم فاعل من "أصاب". ولكن نَجِد السوطي في مكان آخر من (المزهر) يُقرُّ ما ذَكرَه الجوهريّ في (الصَّحاح) من أنّ "مصائب" صحيحة اجتمعت العرب على همزها.

فالسيوطي في كتابٍ واحد نَصّ على أنّ كلمة (مصائب)

غلطٌ وصوابٌ! فكيف يستقيم هذا الحكم؟

لذلك نجد الدكتور سمَر الفيصَل عندما تناول هذا المثال مع أمثلة كثيرة في بحثه (موقف السّيُوطي من الأغلاط اللّغَويّة)، قال: "إنّ المقبول لديّ هو أنّ السيوطي لا يملك معيارًا للصواب يستند إليه في تخطئة كلام العرب وتصويبه، بل يملك القدرة على أن ينقل كلام سابقيه من غير أن يمحّص التناقض الذي ينجم عن النقل من مصادر مختلفة... كما يعني ذلك أن عِلم السيوطي بالعربية لا يرقى إلى المرتبة التي ادّعاها لنفسه".

ما مدى أمانة السيوطي في النقل؟

قال السيوطي في "المزهر" (٢/ ٣١٩): (ولهذا لا تراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفًا إلّا معزوًّا إلى قائله من العلماء مبيِّنًا كتابه الّذي ذُكر فيه). ولقد صدقَ السيوطي بأنه كان يعزو كل نقل واقتباس، بأمانة عالية في هذا

الكتاب، لكننا نجد خلاف ذلك في بعض كتبه الأخرى، حيث كان يقْبِس من غيره أشياءَ ينسبها إلى نفسه، بل ربما سلَخ كتابَ غيره كاملًا وادّعاه لنفسه، مع شيءٍ من التقديم والتأخير وإضافةِ مقدّمةٍ وخاتمة!!

مثال ذلك رسالته "البيان في رياضة الصبيان" التي هي بأكملها بابٌ من أبواب كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي، بعنوان: (باب بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم)، سلخه السيوطي وجعل له مقدمة وخاتمة ونسبه إلى نفسه دون أدنى إشارة إلى المصدر!

ومن أمثلة مُقتبساته التي لم ينسبها إلى أصحابها: ما جاء مِن أحكامٍ نقديّة حديثيّة -بالصِّحّة والضَّعْف ونحو ذلك-، في كتابه: (وصول الأماني بأصول التهاني)، فقد قُرِئ كتابه هذا فيما كنتُ أحضُره في بعض مجالس السَّماع والإجازة، فلفتَ نظري ما فيه من أحكام نقدية لبعض

الأحاديث، فعجبتُ أن يكون للسيوطي مثل ذلك، لعهدي به أنه ليس من أهل هذه المرتبة، فلمّا راجعتُ الأمر وتحقّقتُ من المصادر، إذا به قد اقتبس هذه الأحكام عن الحافظ ابن حجر، دون إشارةٍ تُذكَر!

والسيوطي شديد التأثُّر بالمنجَز العلمي للحافظ ابن حجر العسقلاني، حتى قلّدَه في عنوانات كثير من مؤلَّفاته ومَضوعاتها، وهذا يظهر جليًّا عند النظر في ثبَت مؤلَّفاتهما، وقد سلّطَ الضوءَ عليها الدكتور عبد الحكيم الأنيس في بحثه: "مصدريّة مؤلَّفات الحافظ ابن حجر عند العلماء: السيوطيّ أنموذجًا". وفي هذه الكتب قد يصرّح بأسبقية ابن حجر وقد لا يصرّح!

ومِن طرائف الأحوال: أنّ السيوطي -رحمه الله وغفر له- هو صاحب كتاب (الفارق بين المصنف والسارق)، وكتاب (البارق بقطع السارق).

ولعلّ في هذا القدر كفايةً للمنصف، وغُنيةً للمتعلّم، وإفحامًا للمعانِد، وإسكاتًا للمجادِل.

والله من وراء القصد.

سبب هذا البحث وهدفه:

كنتُ منذ نحو ثلاثة أعوام قلتُ رأيي -الذي صار معروفًا- في الجلال السيوطي، فرَدَّ عليَّ حينَها أستاذُنا الدكتور رياض الطائي مستنكرًا رأيي، ورافعًا من شأن السيوطي، قائلًا: (لو لم يكن للسيوطي إلا كتاب "المزهر" لَكفاه)! واستغربتُ قولَه هذا، لأنه لم يُزكِّ كتابًا للسيوطي في علم الحديث -الذي هو اختصاص أستاذنا الطائي-، وإنّما راح يزكّي كتابًا للسيوطي في علم اللغة -الذي هو اختصاصي-! فبقِيَت هذه الكلمة عالقة في بالي، وأنا أعرف بُطلانها يقينًا، ولم يسعف الوقت بالبيان والتفصيل، حتى تكاثرت الردود على ما ذهبتُ إليه، وتوالت الطعون في شخصي وعلمي ومقصدي؛ فلم أجد بُدًّا من تفريغ بعض الوقت أدوّن فيه بعض الشواهد والدلائل، لإنهاء الجدال الذي طال دون طائل، **والغرض الأسمى** هو بناء المنهج العلمي السليم، بعيدًا عن التعصّب والتقليد في الحكم والتقييم.

كتبه: عمر ماجد السنوي

في العشرين من ذي القعدة عام ١٤٤٤هـ

جواب تعقبات الأستاذ النحّال

عمر ماجد السنوي

تَعقّبَني الأستاذُ المحقِّق أبو شذا محمود النحّال، في مقالي عن الجلال السيوطي المنشور في مجلة أوراق مجمعية، الصادرة عن المجمع العلمي العراقي، وأوّل ما استغربَه الأستاذُ في مقالي أنه نُشِر في مجلة معتبرة، فقال: (أتعجّب من مجلة علمية كيف وافقت على نشر مثل هذا المقال؟!)، وأنا أتعجّب من تعجّبه هذا، وأخشى ما أخشى أن يكون هذا ما غاظ الكثيرَ من المعترضين، إذ ظنّوا أنّ قصارى آراء عمر السنوي أن يبثها على صفحة حسابه الشخصي في "فيسبوك" ولا يكون لها من الاعتبار كما كان لآراء مَن سبقه مِن أهل العلم في هذا الميدان، وظنوا أن هذه الآراء قد ماتت، وأنّها إنّما تَصدُر مِن حسّاد السيوطي! أو مِن أناس يجهلون حاله وليست لهم خبرة بمؤلّفاته!

وفي جوابي على تعقّبات الأستاذ النحّال -هنا-، سيتبيّن أن لا وجه لتعجّبه هذا، وأنّ تعقّباته قد ضلت طريق الصواب، إما لأنها لا تطابق الواقع، أو لأنها حملت الكلام على غير المراد.

أولًا: زعمه أن مقالي (سطحي) وأنه (تشغيب وتقليد) وأنّه (لا يتعدى قول فلان وتركان)، وهذه الكناية الأخيرة فيها إساءة إلى العلماء الذين ذَكرتُ أقوالَهم. وبعيدًا عن هذه الإساءة ثَمَّ جانبان للرد على هذه المزاعم:

الجانب الأول: أنّها تعميمات باطلة، ففي المقال أشياء لم أنقلها عن أحد، ولم أجد مَن نبّه إليها قبلي، وأهمّها حادثة طلَبِ السلطانِ حضور السيوطي، وماذا ردّ عليه؟ وهي قضية في غاية الخطورة. ومسألة سرقات السيوطي أحكامَ الحافظ ابن حجر التي اكتشفتُها أثناء القراءة.

والجانب الثاني: أنّ هذا الزعم إنْ صحَّ فهو لي، لا عليَّ،

لأنّ ذلك يؤكّد أنّ رأيي ليس شاذًا من بين الأقوال، وإنما هو متصل بمَن سبقني من أهل العلم، والحمد لله.

وأمّا نقلي عمّن سبقني فلا يعني البتّة أنني قلّدتهم في ذلك، وإنما كان لي فيه غرضان واضحان صريحان:

الأول: أن أعضد رأيي بمن أعدّهم من أهل العلم المحققين المجتهدين، فلم أجعل أقوالهم شواهد وأدلّة، بل موافقات واستئناسات. ولذلك اخترتها من بين أقوال كثيرة، وأشرتُ إلى خلاف العلماء في الحكم على السيوطي ومنزلته، ورجّحت بين هذه الأقوال ما رأيته صوابًا بالدليل والبرهان؛ فمن الغريب أن يقرأ ذلك الأستاذ النحال بعينه، ثم يزعم أن مقالي (كله دعوات عريضة لا أدلة عليها)! والحق أن هذه الدعوى نفسها دعوى عريضة عارية كل العري عن الدليل، بل مقالي كله من أوله إلى آخره ينقضها.

والغرض الثاني: أنْ أَختصِر على القارئ، وأُرشده إلى

متابعة البحث في المصادر، فلذلك أذكرُ له مثالًا أو نموذجًا، وأدعوه إلى الاستزادة. كما فعلتُ حين أشرتُ إلى كتب: الغماري والألباني ورمضان عبد التواب وسمر الفيصل وغيرهم. وحاشا أن أحيل إلى ما لم أتحقق صوابَه، وأسبر غورَه؛ فكيف أفعل ذلك ومقالي يعيب على السيوطي وقوعه في ذلك؟!

ثانيًا: زعمُه أنّ (جميع مَن نَقلتُ قولَهم في السيوطي بكونه حاطب ليل ليس لواحدٍ منهم دراسة حول مؤلَّف للسيوطي)؛ وهذا زعم باطل، أتعجّب كيف يصدر من محقق له خبرة بالأعلام وكتبهم!!

فإنّ مَن نقلتُ قولَهم في السيوطي أو أشرتُ إلى رأيهم أو أحلْتُ على كتبهم، كلّهم عنوا بدراسة كتاب السيوطي الذي هو محل نقدهم، أو لهم خبرة بعامة كتبه، كما يظهر في تصريحات بعضهم.

وإليك تفصيل القول:

كلام علي القاري مبني على دراسته كتابَ السيوطي في إسلام أبوي النبي عليه الصلاة والسلام.

وكلام أبي الثناء الآلوسي مبني على اضطلاعه بكتاب السيوطي "الهيئة السنية" في علم الهيئة الذي كان الآلوسي أحد أهم أعلام هذا العلم.

وكلام ابن بدران في "تفسيره" مبني على دراسته تفسير "الدر المنثور" للسيوطي، وابن بدران مفسّر مجتهد مفتّش، ليس كالسيوطي جمّاع قمّاش.

وكلام أبي المعالي الآلوسي والبدر النعساني مبني على تأمّلهما في عامّة كتب السيوطي، إذ قالا: ((والسيوطي -رحمه الله- كان فيما ألّفه من الكتب حاطبَ ليلٍ، في كلّ كتابٍ له مذهبٌ ومشربٌ)).

أَفَيَقول هذا مَن لم يَخبر كتب السيوطي؟! إنّهما إذنْ لَكاذِبَيْن، حاشاهما.

وكلام أحمد الغماري وناصر الدين الألباني، مبني على خبرتهما الطويلة ودراستهما الدقيقة لكتاب السيوطي "الجامع الصغير".

وكلام رمضان عبد التواب في بحثه "مصادر كتاب المزهر للسيوطي" مبني على دراسة أكاديمية دقيقة في كتاب السيوطي المذكور.

وكلام سمر الفيصل في بحثه "موقف السّيُوطي من الأغلاط اللّغَويّة" مبني كذلك على دراسة أكاديمية دقيقة في كتاب السيوطي "المزهر" نفسه.

وكلام محققِي كتاب المزهر -وهم من علماء العربية المعروفين- مبني على دراستهم الكتابَ وخبرتهم به.

فهؤلاء هم مَن ذكرتُهم في مقالي ممن نقدوا السيوطي.

أفَبعد هذا كله يحق للأستاذ النحال أن يقول: (ليس لواحدٍ منهم دراسة حول مؤلَّف للسيوطي)؟ إنه لأمر عُجاب!

ثالثًا: الأعجب من القول السابق أن يردفه بقوله: (وعلى كلٍّ فالسيوطي نفسه اعترف بذلك وصنّف كتابًا اسمه "حاطب ليل وجارف سيل")!!

فعلامَ اعتراضُهُ إذنْ إنْ كان يرى أنّ السيوطي اعترف بأنّه حاطب ليل؟!!!

علمًا أنّ السيوطي هنا لم يعترف بأنه حاطب ليل، فذاك فَهْم مغلوط من الأستاذ النحال، يدلّنا على أنّه لا يحسن فهم بعض إطلاقات العلماء؛ لأنّ كتاب السيوطي هذا هو معجمه الكبير الذي سطّر فيه ذِكر شيوخه، فليس العنوان وصفًا لنفسه، بل هو وصف لمعجمه، الذي يحوي من الشيوخ مَن يرتضيه ومَن لا يرتضيه. فجدير بالمحقق أن يكون مدركًا مَقاصدَ أسامي الكتب أكثرَ مِن سِواه.

ثمّ كيف يصف السيوطي نفسه بحاطب ليل، وهو المشهور بتبجيل نفسه ورفعِها أرفع المنازل، وزعمه انفراده

بالتبحر في أنواع العلوم، ودعواه الاجتهاد والتجديد؟!

رابعًا: زعم الأستاذ النحال أن مقالي (لم يتناول المزهر بأية دراسة، وأتى بإيراد واحد على السيوطي، وليس أبو عذره بل نقله عن غيره) كذا قال!

فأما زعمه أنني نقلته عن غيري فقد بيّنت الغرض من ذلك، ورددت هذا الزعم في النقطة الأولى من جوابي.

وأما زعمه أنني لم أتناوله بالدراسة، فهذا قصور نظر، لأنني تناولت المزهر تعريفًا به، وبمصادره، وبأسلوب مؤلفه فيه وأمانته في النقل فيه، وكشفت عن قيمته العلمية والتراثية، كما تكلمت عن تناقضه فيه، للتدليل على أنّ شأنه فيه شأنه في سائر كتبه من جمعٍ وتقميش، دون نقدٍ وتفتيش، واكتفيتُ بمثال واحد، مع الإحالة على أمثلة كثيرة غيره في بحث مستقل لأحد العلماء.

أكُلُّ هذا ليس من الدراسة عند الأستاذ النحال؟!

خامسًا: قال الأستاذ النحال: (والسيوطي في الجمع والترتيب والاختصار من البارعين).

وهذا تعقيب غريب، كأن الأستاذ لم يقرأ مقالي!

فقد وصفتُ السيوطيَّ بذلك في مقالي، وأشدتُ بأسلوبه في الجمع والترتيب، وتمكّنه من الاختصار والتهذيب، وسعة اطلاعه على الكتب، وفائدة مؤلفاته التي حفظت لنا التراث...

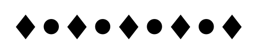
ثم قال الأستاذ النحال عن مزايا اختصارات السيوطي: (ذكرَ الكاتبُ بعضَها وأغفلَ الكثيرَ منها).

وهذا يدل على أنّ الأستاذ قرأ كلامي؛ فلا أدري ما وجه إيراده لهذا الكلام في ردّه عليّ هنا؟!

فأنا أقرّ بما قاله أصلًا، ولا أعدّ هذه المزايا دلالة على أنّ السيوطي عالم مجتهد ناقد ممحّص، فهذا هو محل الإشكال الذي تمنّيت أن ينشغل الأستاذ النحال ببيانه، ولا يكتفي

بإلقاء الدعاوى العريضة دون دراسة وبيان، كقوله: (بل قد خلصتُ إلى أنّ كلّ حديثٍ لا يعرفُ السيوطيُّ مخرجه فليسَ بحديثٍ، وذلك لشِدّة تبحّره ومعرفته بالشواهد والمتابعات، والحُكْم على الحديثِ بالوضْع يَلزم أنْ يكون مِن عالِم متبحّر)؛ فنحن لا نريد من الأستاذ خلاصة دراسته، وإنما نريد دراسته نفسها، لنضعها على ميزان العلم.

ولا إشكال عندي أن أقول بقول الأستاذ إذا تبيّنت لي صحّته، وإن خالفتُ في ذلك سائر علماء الحديث ممن تكاد كلمتهم تتفق على خلاف هذا الزعم؛ لأنّي لا أبني قولي على الرجال، وإنما على الدليل والبرهان.



وبعد أن انتهيت من الجواب على تعقبات الأستاذ النحّال، أودّ أن أذيّله برسالة جاءتني من أحد الدكاترة الفضلاء، والرسالة تضمنت أسئلة، سأوردها مع جوابها:

س١: ((سؤال عن الإضافة التي يحققها هذا المقال للقارئ، لأنك كما تعلم دائمًا يطرحون علينا هذا السؤال في مناقشة الرسائل العلمية وأنا حريص دائما على طرحه بشأن أي إنتاج علمي لي أو لغيري)).

الجواب: المقال بشكل عام هو للردّ على المعترضين، فهو لإيضاح الموقف. أما الهدف الأسمى فهو إيضاح المنهجية التي يجب اتباعها في الحكم على الأعلام وتقييمهم، فلا نغتر بما قيل عن فلان بأنه علامة وإمام وأوحد عصره، ونتغاضى عن الحقائق.

وبالنظر إلى حقيقة منزلة السيوطي العلمية، سنتمكّن من إنزال كتبه ومؤلفاته في منزلتها الحقيقية، بحيث نستطيع أن تعامل معها بطريقة علمية، فلا نقول -على سبيل المثال-: (قال السيوطي كذا وكذا) في مسألة هو في الحقيقة ناقل لها. ولا نقول: (رجّح السيوطي كذا ورأى كذا) إلا إذا تأكّدنا من صريح قوله أنّه يرى ذلك، لأنّ وجود

النص في كتابه لا يعني الترجيح، وقد يتناقض فيرجّح شيئًا ويرجّح نقيضه في موطن آخَر، فهذا أمر يُنبَّه القرّاءُ إليه.

س٢: ((ما مقصدكم بالاستقراء والتتبع الذي حكمتم من خلاله على السيوطي؟ لأنكم ذكرتم في المقال هذه العبارة: (وبالاستقراء والتتبع...) هل المقصود به قراءة كل إنتاج السيوطي والمكتوب عنه؟ أم يجزئ أن تطلع على عينة؟ وما معيار تحديد العينة حينها؟)).

الجواب: مقصدي أنني تتبعت غالب -لا كل- ما أنتجه السيوطي ووصل إلينا، فبعضه بالقراءة وبعضه بالمطالعة السريعة، مع أَخْذ عينات صالحة للتعميم.

والعينات التي اخترتها مهمة، ومنها كتاب المزهر الذي دار الكلام عنه في هذه المقالة، لا سيما وقد قيل عنه "لو لم يكن للسوطي إلا المزهر لكفاه"! فإذا كان هذا حال الرمز الذي رمزوا به لعلو شأن السيوطي، فما بالنا بغيره!

س٣: ((مسألة الاستقراء ومعيار اختيار العينة مسألة دقيقة جدًا ويكاد يستحيل أن يكون الباحث فيها موضوعيًا كل الموضوعية، فهذه زهاء ٦٠٠ مصنَّف، هل أمكن استقراؤها كلها؟ والعينات التي تبنى عليها الأحكام تغلب عليها الانتقائية عادةً، والتجرُّدُ في اختيارها يحتاج إلى معيار علميّ واضح ولا أظنه متاحًا في العلوم الإنسانية!)).

الجواب من وجهين:

الأول: أنّ كثيرًا من هذه الـ(٦٠٠) مصنَّف، هي عبارة عن رسائل شديدة الصغر، ربما بضع صفحات. ولذلك تمكّن بعض الباحثين المحققين أن يعمل على تحقيق أعمال السيوطي ونشرها في مشروع مجموع مؤلفاته، ومعلوم أنّ عمل التحقيق أكبر من مجرد القراءة والاطلاع، وأصعب، فإذا كان التحقيق ممكنًا فالمطالعة من باب أولى.

الثاني: أنّ انتقاء العينة كان في غاية الموضوعية لأنه

مبنيّ على قول المردود عليهم لا على اختيار الناقد هنا.

فالعيّنة لم يقم الباحث باختيارها بنفسه، بل بناءً على اختيار المادحين للسيوطي الذين وقفوا في وجه الباحث، وجعلوا يستدلون على علو مكانة السيوطي بهذه النماذج، فأراد الباحث أن يقلب الطاولة عليهم من خلال النماذج التي اختاروها هم، فيبيّن أنها تؤيد رأيه في السيوطي لا رأيهم.

أمّا التجرد في الاختيار فإنما يحصل بالصدق مع النفس، فهو تابع لأخلاق الباحث بالدرجة الأساس.

س٤: ((ثَمَّ ملحظ مبني على كلمة في "عارضة الأحوذي" لابن العربي المالكي -رحمه الله-: "ولا ينبغي لحصيف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن أحد غرضين: إمَّا يخترع معنًى، أو يبتدع وضعًا ومبنًى، وما سوى هذين الوجهين، فهو تسويد الورق، والتحلّي بحلية السرق". نرى هنا أن ابتداع وضع ومبنى من أغراض التأليف الأساسية،

فلماذا ننكر على السيوطي كما فعلت؟)).

الجواب: إنّ قول ابن العربي: "أو يبتدع وضعًا ومبنًى" هذا ينطبق على السيوطي في كثير من كتبه، وأنا لم أبخس السيوطي في ذلك، بل اعترفت بابتكاره وإبداعه هذا، وأثنيت على صنيعه من هذا الوجه، فلا يقال إنّني أنكر صدور هذا الصنيع من السيوطي، وإنما أنكرت أن يكون قد صدر منه "ابتكار معنى"، أو أن يكون في كتبه اجتهاد وتدقيق وتمحيص -في غالب أمره-.

كما أشرتُ إلى وقوعه في السرقات، وهي غير الصنفين اللّذَين ذكرهما ابن العربي، وإنما هي من النوع الذي قال عنه: "وما سوى هذين الوجهين، فهو تسويد الورق، والتحلّي بحلية السرق"، فقد وقع ذلك عند السيوطي في بعض تآليفه، وهذا قصور في الأمانة العلمية -غفر الله لنا وله-.

◆●◆●◆●◆●◆

جواب سؤال الأستاذ عدنان أبو الشعر

عمر ماجد السنوي

سألني أخي وصديقي عدنان أبو الشعر، عن بعض ما جاء في مقالي عن الجلال السيوطي المنشور في مجلة أوراق مجمعية، سؤالًا مطوَّلًا لاشتماله على نُقولات ومناقشات، فأَودّ أن أُثبِتَه هنا تامًّا، ثم أُردفه بالجواب كما طلَب، ولولا طلبه العزيز ما كتبت، لأن الأمر مرهق ومُشغِل، ولأن فيما سبق من تصريحاتي ما يشير إلى الجواب.

السؤال:

قال -حفظه الله- بعدَ التحية والسؤال عن الحال:

((قرأتُ مقالكم، وعرفتُ ما فيه. لكن استوقفني في المقال عبارة: "اختلفت أقوال العلماء فيه، وقد اغترَّ كثيرٌ منهم بكثرةِ مصنفاته وشهرتها، وقدرته على استيعاب الموروث... فأطلقوا عليه ألقابًا كبيرة، من نحو: الإمام، والعلامة، والحافظ، وغيرها ...إلخ"، ثم عبارة: "ولكن علماء آخرين أبوا إلا أن يجهروا بتقييمه في ميزان العلم لا

ميزان العصر، فكشفوا عن حقيقة حاله بعد أن تأملوا مصنفاته". واستشهدَ المقال بكلام الملا علي القاري، والإمام أبي الثناء الآلوسي، وغيرهم. وأتساءل هنا: ما هو الميزان الذي يجعل كلامًا في شخصٍ مقدَّمًا على كلامٍ آخر فيه؟ فيكون أحدهما بميزان العصر، والآخر بميزان العلم، وما هي سمات هذين الميزانين وضوابطها!!

ثُمّ من القواعد الأساسية في معرفة حكم إمام من الأئمَّةِ على شيء: جمع جميع كلامه، مدحًا وذمًّا، ومعرفة سياق ذلك الكلام، وخصوصه وعمومه، وجمع النظير إلى نظيره، ورد الشبيه إلى شبيهه، إلى نحو ذلك مما هو معلوم. ومعلومٌ أيضًا أن أخذ الأحكام في سياق الردِّ محفوفٌ بكثير من المخاطر، إذ تكون فيه النفوس مشحونةً، ودوافع الانتصار للرأي أقوى، ويذكر في ذلك ما نقله الذهبي ((تاريخ الإسلام)) (٩/ ١٠١) عن أبي حيان التوحيدي في ((رسالة ما تتمثل به العلماء)): "سمعت الشيخ أبا حامد [الإسفراييني] يقول لطاهر العباداني: لا تعلق كثيرًا مما تسمع مني في مجالس الجدل، فإن الكلام يجري فيها على ختل الخصم ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه الله خالصًا، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام، وإن كنا في كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى،

فإنا مع ذلك نطمع في سعة رحمة الله".

وفي استشهاد المقال بكلام الملا علي القاري والإمام الآلوسي نظر. إذ الاستشهادُ بالأول مأخوذ من كتاب (أدلة معتقد أبي حنيفة في أبوي النبي صلى الله عليه وسلم)، ومعلوم أن هذه المسألة فيها خلاف كبير، وكثرت فيها الردود والأقوال والتصانيف. فاختيار كلام الملا علي القاري وهو مخالف للسيوطي في هذه المسألة، يحاول إسقاط أدلته، والاحتجاج عليه، وإطلاق كلامه على أنه عامٌّ = ليس من مسالك أهل العلم. ومن نظر في كتب الملا علي القاري عمومًا عرف مقدار اعتداده بالسيوطي، ووصفه بألفاظ التبجيل والتعظيم في مواضع كثيرة، فلماذا أغفل المقال هذا الأمر؟ ومن هذه المواضع، قوله في ((مرقاة المفاتيح)) (١/ ٣٢١) في بيان المجدِّدِ [وقد ألمح المقال إلى هذه المسألة] في شرح حديث: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»: "وأغربَ ابن حجر [يعني الهيتمي] وحمَلَ المجدِّدين محصورين على الفقهاء الشافعية، وختمهم بشيخه الشيخ زكريا مع أنه غير معروف بتجديدِ فنٍّ من العلوم الشرعية، و(شيخُ مَشايخِنا السُّيوطي هو الذي أحيا علم التفسير المأثورِ في "الدر المنثور"، وجمع جميع الأحاديث المتفرقة

في "جامعه" المشهور، وما ترك فنا إلا وله فيه متن أو شرح مسطور، بل وله زيادات ومخترعات يستحق أن يكون هو المجدد في القرن المذكور، كما ادعاه وهو في دعواه مقبول ومشكور)، هذا والأظهر عندي والله أعلم أن المراد بمن يجدد ليس شخصًا واحدًا، بل المراد به جماعة يجدد كل أحد في بلد في فن أو فنون من العلوم الشرعية ما تيسر له من الأمور التقريرية أو التحريرية، ويكون سببًا لبقائه وعدم اندراسه وانقضائه إلى أن يأتي أمر الله... إلخ". فهل قال الملا علي القاري هذا الكلام بميزان العلم أم بميزان العصر؟ وهذا يعود بنا إلى ضوابط هذه الموازين. ولماذا نقدم نصًّا واحدًا في مسألة معينة، ونغفل نصوصًا كثيرةً في سياقات مختلفة؟!

وأمَّا الإمام أبو الثناء الآلوسي، فكان كلامه عن السيوطي في سياق الرد على كتاب (الهيئة السنية)، فنقده مخصوص بما في هذا الكتاب على ظاهر كلامه. فلا يمكن حمل كلامه على جميع تراث السيوطيِّ. وإذا طبقنا كلام المقال: "وقد اغترَّ كثير منهم... فأطلقوا عليه ألقابًا كبيرة"، سنجد الإمام أبا الثناء الآلوسي من هذا الصنف في كثير من المواضع في ((تفسيره))، فقد أطلق عليه كثيرًا: (الإمام، والحافظ، والعلامة). واستشهد بكلامه في عشرات المواضع، وذكر

عددًا من اختياراته، وعوَّل عليه كثيرًا في الكلام على تناسب السُّور، والكلام على درجات الأحاديث، وقال في موضع (١/ ٣٩٦): "... ما روي في سبب النزول ليس مذكورًا في شيء من كتب الحديث ولا التفاسير المعتبرة (كما نص على ذلك الإمام السيوطي، وكفى به حجة في هذا الشأن)". فهل قال الإمام أبو الثناء هذه الكلمات بميزان العلم أم بميزان العصر؟ أرجو بيان ذلك، ولكم جزيل الشكر)) انتهى.

الجواب:

إنّ تقسيمَ ميزانِ التصنيف إلى عِلميّ وعَصريّ، هو تقسيمٌ يراعي جناب العلماء، بتخريج أقوالهم على نحو مقبول، بدلًا من اللجوء إلى تخطئتهم، فما من ضير على مَن أطلق على السيوطي ألقابًا من مثل (الإمام العلامة الحافظ شيخ الإسلام) وغيرها، فهي ألقاب نسبية، نسبة إلى أهل العصر ومستواه العلمي، والحال نفسه اليوم في عصرنا، كم من علَمٍ من أساتذتنا أطلقنا عليه لقب العلّامة، لو وُزن بعِلم الأسلاف السابقين -كالخليل والشافعي والبخاري والطبري والراغب والمعري وابن حزم وأمثالهم- لَكان

أَمامَهم من العوام في أحسن الأحوال!

أما التجديد فهو كذلك أمرٌ نِسبيّ، وقد يتعلق بجانب دون جانب، ولم تعلّقه النصوصُ بالعلماء، فربما كان المجدد أميرًا، أو موسِرًا، أو داعيًا، أو شاعرًا، أو كاتبًا، تتجدّد به بعض السنن وتَحيا به الشرائع المندرسة أو تنشط بسببه حركة علمية أو أعمالًا خيرية. وكيف لا يكون للسيوطي حَظّ من ذلك وقَلّ أنْ وُجِد في التاريخ مثله في سعة الاطلاع والإلمام بالتراث، وتدوينه في كتب موسوعية أو موضوعية، فحَفِظَهُ للأمّة كلّها. ومِن هذا الباب جاء كلام الملا علي القاري، فهو إنما وصف السيوطي بالتجديد لإحياء فن التفسير، بل ليس عموم فن التفسير، وإنما التفسير بالمأثور، ولكونه أيضًا تميّزَ بجمع السنة وتدوينها.

وإنما يعاب على السيوطي في ذلك دعواه أنه مجدد لكونه أوحد عصره، إذْ انفردَ بالاجتهاد في العلوم! وهذه دعوى عريضة، بل معيبة، لأن الإنسان لو صدَقَ فيه هذا القول ما

كان له أن يقوله عن نفسه، فكيف والواقع خلاف ذلك! بل إن هذه الدعوى مخالفة لأبجديات عقيدة المسلم، الذي يعتقد أن الغيب من علم الله، فكيف له أن يرجم بالغيب ويزعم وحدانيته في عصره وكأنه أحاط به علمًا!

وليست هذه بأولى زلاته العقدية، فمن ذلك زعمه أنّه يطوف بالكعبة وهو في القاهرة، وأن هذا من كراماته! والكرامات لا ينكرها مسلم، وإنما الخرافات ينكرها كل من له مسكة عقل.

فبانَ مما سبق أن ذِكري لِنقد القاري والآلوسي لم يكن انتقائيًا، بل كان عِلميًا، وعن وعي، لأن نقدهم الذي ذكرتُه عنهم هو نقدٌ مخصوص يتعلق بكونه (حاطب ليل)، فلا يلغيه ثناؤهم عليه في مواضع أخرى، أو تلقيبهم له بألقاب الإكبار والتبجيل، فقول الآلوسي عنه في موضع آخَر بأنّه حجة في معرفة ما روي في مسألةٍ ما، فهذا صحيح إلى حدٍّ ما، لأنه بلغ من سعة الاطلاع على التراث ما لم يبلغه

غيره من أهل التصنيف.

أما قول أخي الأستاذ عدنان: (وإطلاق كلامه على أنه عامٌّ = ليس من مسالك أهل العلم) -يعني إطلاق كلام القاري في وصفه للسيوطي بأنه حاطب ليل!- فهذا القول من أخي عدنان قول غريب، إذْ كيف لا يكون هذا من مسالك أهل العلم والأصل أنّ أهل العلم ليسوا أهل هوًى، فلا يُعقَل أن يَصفوا الشخص تارةً بأنه حاطب ليل، وتارة يصفونه هو نفسه بأنه ناقد محقق، فهذه لا تصدر إلا ممن اتبع هواه، فيتقلّب مزاجه بحسب المخالَفة والموافَقة!

إنّ قول القاري عن السيوطي بأنه "حاطب ليل" لا يناقضها ثناؤه عليه بالتجديد في إحياء علم التفسير بالأثر ولا ثناؤه عليه باستيعابه جمْع السنة النبوية، بل كلّنا نقر للسيوطي هذه الحسنات، ونشكر له هذا الصنيع.

أما كيف يمكننا أن نجعل كلامًا في شخصٍ مقدَّمًا على

كلامٍ آخَر فيهِ؟ فالجواب عن ذلك هو العِلْم نفسه، فإذا قال أحدهم: (فلان مخلّط) وقال الآخر: (بل هو محقّق)، قمتَ بدراسة كلا القولين، واختبارهما بعَرضهما على حال الشخص نفسه وآثاره العلمية؛ فيكون العِلْم هو الميزان لا سواه.

وهذا يؤدّينا إلى مسألة مهمة أكرر التوكيد عليها، وهي أنني لم أعتمد أقوال القاري والآلوسي وغيرهما، ولم أستشهد بها، وإنما جاءت استئناسًا، فلم أختر هذه الأقوال إلا لأنها طابقت نتائج دراستي للسيوطي، فلم يكن هؤلاء عُمدتي، لأن الحق لا يُعرف بالقائل، وإنما بالبراهين والدلائل.

وأما أخي عدنان فقد اختار أن يناقش ما نقلتُه من كلام القاري والآلوسي الكبير، دون بقية الأقوال التي نقلتُها عن العلماء الآخَرين، التي جاء في بعضها التنصيص على أنّ السيوطي (حاطب ليل في جميع مصنفاته وكتبه)، فهل كان تركه لهذه الأقوال عمدًا أم سهوًا؟

♦●♦●♦●♦●♦

الفهرس